# التمثلات الثقافية للنسق الأيديولوجي في رواية "في قلبي أنثى عبرية" لخولة حمدي

# The Cultural representations of the ideological pattern the Novel "In My Heart a Hebrew Woman" by Khawla Hamdi.

*ط د. مريم العرجاني[1] / أ.د. نسيمة علوي[2]
Meriem Lardjani[1] / Nassima Aloui[2]
مخبر التراث الأدبي الجزائري الرسمي والهامشي.
جامعة 20 أوت1955 سكيكدة (الجزائر)
University20 August 1955 Skikda (Algeria)
meriemlardjani16@gmail.com [1] / aloui76@gmail.com [2]

| تاريخ الإرسال: 2023/08/07 | تاريخ القبول: 2023/09/13 | تاريخ النشر: 2023/12/15 |
|---|---|---|

## مُلخّص البحث

تحاول هذه الورقة البحثية الكشف عن التمثلات الثقافية للنسق الأيديولوجي في رواية "في قلبي أنثى عبرية" لخولة حمدي، وإبراز الخلفيات الأيديولوجية المضمرة للآخر المتعصب، والذي ينساب ضدّ الذات العربية الإسلامية تحت غطاء السلام والتعايش داخل المجتمع الواحد. وقد اعتمدنا في سبيل تحقيق هذا الهدف على منهج النقد الثقافي وما يتبعه من تحليل، وذلك لرصد مختلف الأنساق الأيديولوجية وتمثلاتها الثقافية، والكشف عن المضمر والمسكوت عنه في الرّواية المدروسة. وخلصنا في النتائج، أنّ الروائية خولة حمدي أبدعت في ترجمة الواقع الأيديولوجي ترجمة ثقافية من خلال المنجز السردي عامة، ومن خلال نسق كلّ من؛ الحجاب، الحتمية التاريخية، الوطن والمقاومة، العنف والإرهاب، وذلك عبر الشّخصيات الحكائية، وما تؤديه من دور في كشف الصراع الثقافي.

**الكلمات المفتاح:** أيديولوجيا، ثقافة، نقد ثقافي، الأنا والآخر، رواية، خولة حمدي.

**Abstract :**

This research attempted to explore the cultural representations of the ideological pattern in the novel "In My Heart a Hebrew Woman" by Khawla Hamdi. It sheds light on the underlying ideological backgrounds of the other's intolerance that is opposed to the Arabic Islamic existence under the umbrella of peace and coexistence inside the same society. To achieve this objective, we used

*- مريم العرجاني، meriemlardjani16@gmail.com

the approach of cultural criticism analysis to track the different ideological patterns and their cultural representations and to find out the conscience and silence in the studied novel. The results showed that the novelist was creative in culturally portraying the ideological reality by the narrative accomplishment in general and through varied elements, including hijab, historical determinism, homeland and resistance, violence and terrorism. These were embodied in the fictional characters and their roles in unveiling the cultural conflict.

**Keywords**: Ideology, culture, cultural criticism, the ego and the other, novel, Khawla Hamdi.

**مقدمة:**

تعدّ الرّواية لسان الأديب المعاصر؛ حيث ينقل من خلالها الصراعات والتناقضات الحاصلة في المجتمع ضمن قالب فنّي جمالي ماتع، فتتوارى خلفها جملة من الأنساق الأيديولوجية المضمرة التي تحرك عنصر الصراع، لتكون بذلك خطابا أيديولوجيا متعدّد الرّؤى، ومنفتح الآفاق الاستشرافية. من هذا المنطلق، جاء موضوعنا لدراسة التمثلات الثقافية للنّسق الأيديولوجي في رواية "في قلبي أنثى عبرية" للروائية خولة حمدي، وهي من أشهر الروائيات التونسيات في تناول القضايا الإنسانية عبر المنجز السردي؛ إذ تعدّ رواياتها هذه على وجه الخصوص، صورة للواقع التونسي- واللبناني بتناقضاته السّياسية والدينية والاجتماعية، وذلك تحت قناع التعايش والحوار بين الأنا والآخر، مما جعلها نصّا ثقافيا مكثفا، يتفرد بتمثلات كثيرة وأنساق أيديولوجية مضمرة.

وإنّ تعدّد الهوية والمرجعيات الثقافية في المجتمع الواحد، يؤدي بطبيعة الحال إلى الاحتدام والصراع بينها، وهذا ما سعت إليه دراستنا من خلال الكشف عن صراع الأنساق الأيديولوجية بتمثلاته الثقافية بين الأنا العربية والآخر اليهودي والمسيحي في المجتمع التونسي- واللبناني. ومنه نطرح التّساؤلات الآتية: ما مفهوم النسق الأيديولوجي؟ وما علاقته كنسق ثقافي وفكري بالخطاب الرّوائي ومكوناته؟ ما التمثلات الثقافية للنسق الأيديولوجي في رواية "في قلبي أنثى عبرية" لخولة حمدي؟

وللإجابة عن التّساؤلات المطروحة، وتحقيق مقاصد الدّراسة من الكشف عن النسق الأيديولوجي في المتن الرّوائي، حاولنا تقسيم الموضوع إلى محورين؛ الأول بعنوان: الأيديولوجيا بين النسق المعرفي والنسق الإبداعي في العمل الرّوائي؛ تناولنا فيه جدلية الأيديولوجيا كنسق معرفي فكري من خلال توضيح مفهوم هذا التوجه، وعلاقته بمختلف المعارف الإنسانية المشكلة له، ثمّ

كيفية تمثّل الرّوائي للأنساق الأيديولوجية في سرده. أما المحور الثاني، فجاء بعنوان ب: التمثلات الثقافية للنسق الأيديولوجي في رواية "في قلبي أنثى عبرية"، حيث مهدنا له بملخص لأحداث الرّواية، ثمّ حاولنا إبراز النسق الأيديولوجي بتمثلاته الثقافية من خلال؛ نسق الحجاب، نسق الحتمية التاريخية (الشتات)، نسق الوطن والمقاومة، نسق العنف والإرهاب. فكلّ هذه الأنساق صوّرت لنا رؤيا أيديولوجية ثقافية تكشف الصراع الحاصل بين الأنا والآخر في المجتمع الواحد؛ أيّ واقع الصراع التونسي وواقع الصراع اللبناني.

## أولا: الأيديولوجيا بين النسق المعرفي والنسق الإبداعي في العمل الرّوائي:

### 1- الأيديولوجيا كنسق معرفي فكري:

بداية لا يمكن أن يتسع الفضاء الذي نقدم فيه المجال المفهومي للأيديولوجيا كنسق فكري ليشمل جميع ما قدّمه الفلاسفة والمفكرون تنظيرا وتطبيقا، لذلك سنركز على بعض المفاهيم من خلال علاقتها بالأنساق والعلوم الأخرى ذات الصلة بالثّقافة، كنسق الفلسفة وعلم الاجتماع والسّياسة. ذلك أنّ مصطلح الأيديولوجيا من أكثر المفاهيم والمصطلحات تعقيدا وغموضا وتشعبا، فهو مصطلح إشكالي غير مستقر، بالإضافة إلى اختلاف وجهات النظر حول معناه لدى الفلاسفة، وعلماء الفكر السياسي والاجتماعي، وكذلك الأدبي.

لعلّ من التعريفات الأكثر تداولا للأيديولوجيا - والذي يشمل جميع ميادين الفكر- تعريفها بأنّها: "النّسق الكلّي للأفكار والمعتقدات والاتجاهات العامة الكامنة في أنماط سلوكية معيّنة. وهي تساعد على تفسير الأسس الأخلاقية للفعل الواقعي وتعمل على توجيهه. وللنسق المقدرة على تبرير السلوك الشّخصي، وإضفاء المشروعية على النظام القائم والدفاع عنه. فضلا على أنّ الأيديولوجيات أصبحت نسقا قابلا للتغيير، وذلك استجابة للتغييرات الرّاهنة والمتوقعة، سواء كانت على المستوى المحلي أو العالمي"[1]. ويعني هذا، أنّ الأيديولوجيا هي منظومة نسقية فكرية عامة، تتشكل من أنساق جزئية كامنة في الوعي الإنساني، ليعبّر عنها الفرد في واقعه الاجتماعي إما بالعنف أو بالإيجاب. كما تتمتع الأيديولوجيا بخاصية التّطور والحراك؛ فهي غير ثابتة، وتتغير حسب اهتمامات الجماعة والنظام القائم، وذلك لتعدد أفكار مؤسّسيها، والاختلاف الحاصل بينهم من فترة تاريخية إلى أخرى.

جاء في الموسوعة الفلسفية أندري لالاند، أنّ أول من استخدم كلمة أيديولوجيا، هو المفكر الغربي "دستوت دو تراسي"، وهذا في كتابه "مشروع عناصر الأيديولوجيا". ويعني بها: "علم موضوعه دراسة الأفكار (بالمعنى العام لظواهر الوعي)، ومزاياها وقوانينها وعلاقاتها مع العلامات التي تمثلها، وبالأخص أصلها"[2]. وجاء مفهومه دالا على أنّ الأيديولوجيا علم للأفكار، والارتقاء بها إلى مستوى الوعي واليقين، وإعطاء الأفكار صبغة علمية منهجية، تخلصها من النزعة الرّوحية المجرّدة

التي غلبت عليها في الماضي، وإحلالها محلّ المرجعية الدّينية المسيحية للقضاء على السّيطرة والحكم الكنسي.

أما في مجال الدّراسات النّفسية والاجتماعية، فقد قسّم عالم الاجتماع السياسي الألماني "كارل منهايم" الأيديولوجيا إلى قسمين:

- **أيديولوجيا خاصة (نفسية):** ويعني بها الحصيلة الفكرية التي تمكن الأفراد من اتخاذ مواقف معيّنة، وتكوين وجهات نظر خاصة.
- **أيديولوجيا عامة (اجتماعية):** وهي المتعلقة بنمط التفكير السائد في حقبة زمنية ما، أو عند طائفة معينة[3].

كما جاء في قاموس علم الاجتماع، بأنّ الأيديولوجيا هي عبارة عن: "نسق من المعتقدات والمفاهيم (واقعية ومعيارية)، يسعى إلى تفسير ظواهر اجتماعية معقدة من خلال منظور يوجه ويبسط الاختيارات السياسية والاجتماعية للأفراد والجماعات"[4]. فالأيديولوجيا من هذا المنظور، لابد أن تستجيب لحاجيات الطبقة الاجتماعية.

وغير بعيد عن هذا التوجه المعرفي عند "كارل مانهايم"، نجد له توجها آخرا يحمل المفهوم السياسي لمصطلح الأيديولوجيا؛ إذ يعرّفها في كتابه "الأيديولوجيا واليوتوبيا" بأنها: "أنساق فكرية تخدم في الدفاع عن نظام اجتماعي معين، وتعبر بشكل واسع عن مصالح الجماعة الحاكمة أو المسيطرة"[5]. وفي هذا السياق، يربط الباحث عبد الله العروي مفهوم الأيديولوجيا بميدان المناظرة السياسية مصرّحا: "من الطبيعي حينئذ أن يكتسي ـ صبغة سلبية أو إيجابية حسب هوية المستعمل. يرى المتكلم أدلوجته الخاصة عقيدة تعبر عن الوفاء والتضحية والتسامي، ويرى في أدلوجات الخصوم أقنعة تستتر وراءها نوايا خفية لا واعية"[6]. ولهذا كان للأيديولوجيا الجانب الخفي والضمني، وكانت أداة سياسية في أيدّ الطبقة الحاكمة بإمتياز، وذلك لبسط نفوذها وقوتها على المجتمع. كما تتخذها إما بطريقة إيجابية حفاظا على مصالحه وتحقيق أهدافه. وإما بطريقة سلبية لتحقيق مصالح خاصة، فتعمد على تزييف الحقائق، واستخدام الخداع في تضليل الجماعة.

### 2- الأيديولوجيا كنسق إبداعي في الخطاب الرّوائي:

إضافة لما ورد سابقا في مفهوم الأيديولوجيا، فإنّ لها ارتباطا وثيقا بالأدب؛ بل طالما كان الأدب هو الممارسة الإبداعية التي يُظهر فيها الكاتب أيديولوجيته الخاصّة في محاولة لتغيير الواقع وحلّ مشكلاته. وهذا من خلال تصويره الفنّي، كون العمل الأدبي هو "كتابة تنظم الإيديولوجيا وتبنيها، أي تمنحها بنية وشكلا ينتج دلالات متميزة تختلف في كل عمل وتبدو جديدة وأصلية"[7]. ليصبح الأدب شكلا من أشكال الأيديولوجيا المنتجة من منظور الاتجاه الماركسي ـ والذي يرى أن الأدب هو إنتاج أيديولوجي يتواجد في علاقة مع اللغة والتاريخ، والتشكيلات الاجتماعية[8]. ولعلّ هذا ما

يمنح الأدب البعد الوظيفي والنفعي إضافة إلى ما يتمتّع به من جانب فنّي. وبهذا يكون الخطاب الرّوائي الأقرب لهذا الوصف.

ومادام أنّ الأدب يعكس النّشاطات الثّقافية والمعرفية للمجتمع؛ وأنّ كثيرا من نظرياته تنطلق من علاقته بالمجتمع عموما، وبيئة الكاتب أو المبدع خصوصا. فإنّ الرّواية -كجنس أدبي-، هي أولى الأجناس باحتضان القضايا الأيديولوجية، ونقلها من واقعها الاجتماعي إلى فضائها التّخييلي، وكذلك التعبير عنها عبر آليات وتقنيات السرد المختلفة. فمن تمثّلات الأيديولوجيا في العمل الرّوائي، حضورها كقناع عبر الأنساق الثقافية والمعرفية، وبالتّستّر والتماهي والذوبان وراء لغة الخطاب ومفرداته؛ فهي "تأخذ استراتيجية حضورها عبر إخفاء وجودها كشرط للنجاح في أداء وظيفتها"[9]. وهذا ما يؤكد أنّها أصبحت أدبية، وأصبحت شكلا من أشكال المعرفة الثّقافية، لذلك لا يمكن الكشف عنها إلا من خلال هذا الترابط، أو ثلاثية: أدب، أيديولوجيا، ثقافة.

ومن منظور هذا التشكيل الروائي، تصبح فعالية الكتابة معنية أكثر بتوظيف المرجعية الأيديولوجية كنسق مضمر، خاصة أنّ العمل الروائي "لا يرتبط بالإيديولوجيا عن طريق ما يقوله، بل عبر مالا يقوله. فنحن لا نشعر بوجود الأيديولوجيا في النص إلا من خلال جوانبه الصامتة التي يجب أن يتوقف عندها الناقد ليجعلها تتكلم"[10]. ومعنى هذا بساطة، أنّ تجلي الأيديولوجيا في العمل الفني عموما والروائي خصوصا، لا يكون ظاهرا وسطحيا؛ بل يكون نسقا مضمرا خفيا، يستشفه الناقد المتمرّس، والقارئ المتفحص، فليس من الهين، تقصي جملة من المعتقدات الفكرية للمؤلف داخل النسيج الإبداعي.

ونتيجة هذا الترابط والتّواشج كذلك بين ثلاثية؛ أدب، أيديولوجيا، ثقافة، يكون الرّوائي من وجهة نظر باختين "لا يتكلم لغة واحدة، كما أنّ أسلوبه ليس هو لغة الرواية ذاتها، لأنّ الرواية في الواقع متعددة الأساليب، فكلّ شخصية وكل هيئة تمثل في الرواية، إلا ولها صوتها الخاص، وموقفها الخاص، ولغتها الخاصة، وأخيرا إيديولوجيتها الخاصة"[11]. ومعنى هذا، أنّ كلّ صوت في الرواية يشكل موقفا أيديولوجيا مخالفا أو موافقا لما تحمله شخصياتها، ومجموع تلك المواقف تُظهره الأحداث المتناقضة داخل الصراع، وهذا الصراع والتناقض الأيديولوجي بين الشخصيات هو ما يصطلح عليه باختين ب"الحوارية"، والتي يراها المكوّن الأساس في كلّ عملي روائي.

وبالإضافة لما يمنحه هذا التنوع الأيديولوجي للرواية من تمثلات وأبعاد ثقافية، بعضها مضمر والآخر صريح، فهو يدفع القارئ نحو التّأويل، ويجعله غير مسلّم بسطحية السطور إلى فكّ تلغيزها. كما يضفي على السرد بعدا وظيفيا خاصا، يمتزج مع الجانب الجمالي الإبداعي. لهذا، فإنّ الأيديولوجيا عند الرّوائي أداة ثقافية لتنوير أذهان القراء بما يجرى حولهم من أحداث، وأداة جمالية كذلك يتخذها لرسم عالمه ومواقفه.

## ثانيا: التمثلات الثقافية للنسق الأيديولوجي في رواية "في قلبي أنثى عبرية":

### 1- ملخص أحداث ومضمون الرّواية:

تسير أحداث الرواية وفق فضائيين مختلفيين جغرافيا وثقافيا، الفضاء الأول تتمركز أحداثه في دولة تونس وبالتحديد جزيرة جربة، المكان الذي يجمع بين اليهود والمسلمين من حيث الانتماء إلى الوطن فقط. والفضاء الثاني المتمثل في دولة لبنان، وبالتحديد مدينة قانا التي تعيش فيها ثقافات متباينة التوجه والمعتقد من المسيح واليهود والمسلمين. وتبدأ أحداث الرواية بجزيرة جربة، أين ولدت شخصية "ريما" الفتاة المسلمة واليتيمة بين أحضان عائلة جاكوب اليهودية. إذا قبل وفاة والدتها، أوصته بالعناية بها والحفاظ على ديانتها، فكان جاكوب بمثابة الأب الذي رعاها ومنحها الحنان، كما عمل على تنفيذ وصية أمها له، فكان يأخذها كل يوم جمعة إلى المسجد لحضور الصلاة، والاستماع إلى الدرس الذي يلقيه الإمام، وذلك لتنشأ نشأة صحيحة.

لكن بعد زواج جاكوب من "تانيا"، لم تتقبل هذه الزوجة الفتاة "ريما" بين أفراد عائلتها لاختلاف دينها، إلّا أنّ جاكوب ظل أكثر تعلقا بها، خاصّة بعد أن أنجب طفلين "سارا" و"باسكال"؛ و كان يشعر بفقدانها براءة ومرح الطفولة لاستعجال زوجته "تانيا" إلى أخذهما للعلم والمعرفة، وهذا ما جعل الطفلين يستغنيان عن حبه ورعايته، فكانت "ريما" طفلته الوحيدة التي تعوضه إحساس الأبوة. ومع توالي السنوات، بلغت "ريما" مرحلة الوعي والإدراك الديني، فصارت أكثر التزاما بدينها، لكن كان ارتداؤها الحجاب أول أسباب الصراع بينها وبين الزوجة اليهودية "تانيا"، والتي كانت لها بالمرصاد خوفا من إدخال الشّكوك العقائدية لطفليها.

ثمّ زادت هوة الصراع بينها وبين جاكوب، بانتقال صفته مع إدراكها الديني من الأب الحنون إلى رجل أجنبي عليها بعد إقناعها له بحرمة نزعها الحجاب في حضوره، لتنتهز "تانيا" الفرصة إثر ذلك بترك المنزل، وتهديده بعدم الرجوع إليه إلا بعد مغادرة "ريما". وهذا ما جعل جاكوب يرسلها إلى مدينة "قانا"؛ أين تعيش أخته راشيل التي لم تنجب الأولاد بعد. إلّا أنّ بقاء "ريما" عند راشيل، لم يدم طويلا جراء الاعتداءات المستمرة التي طالت جسدها من طرف زوج راشيل، ما جعلها تلجأ إلى إبعادها وإرسالها إلى عائلة "سونيا" اليهودية وابنتيها "دانا" و"ندى" بعد إقناعهم بأنّ إقامتها لن تطول، وأنها ستتكفل بدفع مصاريفها.

هنا تبدأ الأحداث في التصاعد بعد التقاء "ريما" المسلمة ب"ندى" اليهودية، وبذلك تأخذنا الرواية فضاء آخرا مليئا بالصراعات الأيديولوجية بلبنان، وبالتحديد في مدينة "قانا"، حيث تحمل أيديولوجته شخصية "ندى"؛ الشخصية اليهودية التي نشأت في عائلة تلتقي فيها الديانات اليهودية والمسيحية والإسلامية،إذ تكون الأحداث بطلب "حسان" أحد أفراد المقاومة اللبنانية يد المساعدة من "ندى" في إيجاد طبيب لصديقه أحمد الذي تعرض لإصابة بليغة في ساقه في لبنان جراء انفجار قذيفة إسرائيلية، مما جعل "ندى" تستجيب لطلب المساعدة باستدعاء أخيها "ميشال" (ابن زوج أمها المسيحي)، والذي كان سببا في إنقاض أحمد من الموت.

ونتيجة ما رآه "أحمد" بعد تماثله للشفاء من أخلاق "ندى" الإنسانية التي أعطته صورة مغايرة عن الصورة الراسخة لديه بأنّ جميع اليهود يكنون العداء للمسلمين، زاد تفكيره بها لدرجة أن طلب يدها لخطبتها وتعريفها

بالإسلام، لتوافق "ندى" طلب الخطبة رغم الاختلافات العميقة بينهم، ورغم رفض عائلتيهما هذا الزواج. لتعود "ريما" للأحداث ودور المساعد ل"أحمد" في تقريب "ندى" للإسلام.

لكن بعد هذا التقارب، انقلبت حياة "ريما" رأسا على عقب بعد اختفاء راشيل وعدم دفع مصاريفها لتضع سونيا ريما أمام خيارين، إما أن تغادر المنزل، وإما أن تدفع مصاريف إقامتها من خلال عملها كخادمة في هذا المنزل، لتختار ريما الخيار الثاني الذي كان سببا في نيلها الشهادة في سبيل الله بسبب سقوط قذيفة من إحدى الطائرات الإسرائيلية جنوب لبنان وهي في طريقها إلى السوق لاقتناء حاجيات المنزل . لتعيش بطلة الرواية ندى حالة من الحزن والمرض بموت ريما، ليعيد أحمد حساباته من جديد بشأن ندى التي استسلمت في بداية رحلة الحياة بفقدانها ريما، وهو الذي كان يأمل أنها ستشجعه وتشد من أزره أثناء المقاومة اتجاه دينه ووطنه. إلّا أنّ ندى تتجاوز أزمتها وتثبت عكس تفكيره بعد انضمامها إلى شباب المقاومة، فقد اتخذت من لغتها العبرية وهويتها اليهودية في خدمة المقاومة اللبنانية، من خلال كسب ثقة الجنود الإسرائيليين بعدم تفتيشها وهي في طريقها لتزويد المقاومين بالسلاح.

وتتأزم أحداث الرواية أكثر بعد اختفاء "أحمد" بعد انتصار مسيرة التحرير الشعبية لجنوب لبنان. لتبدأ "ندى" حياة روحية جديدة من خلال بحثها عن الحقيقة الإلهية وإشهار إسلامها الذي يزيد من تأجج الصراع الأيديولوجي في الرواية من خلال علم والدتها بإسلامها، ومحاولاتها المستميته للتراجع عن رأيها، لينتهي بها الأمر إلى طرد ابنتها إلى الشارع والتبرأ منها. تحاول دانا تهدئة الأوضاع بين والدتها وأختها بتجهيز أوراق سفر ندى إلى تونس حيث يقيم والدها، إلّا أنّ ندى تصطدم بعدم استقبالها لمنزله بسبب رفض زوجته والطلب من جاكوب استقبالها في منزله، لتشاء الأقدار للعيش في المنزل الذي أوى ريما لتأخذ على عاتقها مسؤولية دعوة جاكوب للإسلام تحقيقا لأمنية ريما. لتعود إلى تونس بسبب مرض أمها، وقبولها بخطبة حسان بعد تشجيع عائلة أحمد لها من أجل حمايتها والحفاظ على دينها .

وما إن حاولت ندى تجاوز الماضي وبناء حياتها من جديد، يأتيها خبر عودة أحمد فاقدا للذاكرة، لتجد نفسها محتارة بين حب أحمد السابق الذي يدفعها إلى مساعدته لاسترجاع ذاكرته، وبين عقد قرانها مع حسان. لتنتهي أحداث الرواية بمشهدين، زواج أحمد وندى بعد سرد أحمد واقعة اختفائه وتعرضه لصدمة نفسية حادة في ظنه أنّ صديقه حسان كان يخونه مع خطيبته عندما وجد صورة ندى عند بعض الشباب الفضوليين وهم يدنسون عرضها حين فتحت السجون أبوابها يوم تحرير جنوب لبنان. ليسقط على إثر الصدمة عبر المنحدر، ويرتطم رأسه بحجارة جعلته يفقد الذاكرة، ثمّ يجد نفسه في قرية جديدة باسم جديد، ودين جديد. أما المشهد الثاني لنهاية الأحداث، فهو اعتناق جميع الشخصيات اليهودية للدين الإسلامي بعد رحلة طويلة قائمة على الحجاج والإقناع.

**2- بعض الأنساق الأيديولوجية وتمثلاتها الثقافية في الرواية:**

يقوم البناء السردي لرواية "في قلبي أنثى عبرية" على إيديولوجيات عقائدية سياسية اجتماعية مختلفة، تتبناها شخصيات متباينة الأفكار والرؤى والمعتقد. وهي رواية تقوم على الصراع الأيديولوجي الثقافي من خلال توظيف الروائية لأنساق تجعل الخطاب في ظاهره جمالي، بسيط، وصريح إلا أنه ضمنيا يحمل أنساقا إيديولوجية مضمرة عن الوطن، والشتات، الإرهاب، والعنف، المقاومة، والحب، والسلام، والتعصب الديني اليهودي والمسيحي لديانة الإسلام. كل هذه الأنساق تعبر عن بعد استشرافي للواقع الأيديولوجي في ظل ما تعكسه الرواية للحقيقة الواقعية.

وقد عبرت الروائية عن المرجعيات الأيديولوجية في بناء نصها عن طريق جملة من الأنساق التي تحمل في طياتها رؤى وتمثلات ثقافية أيديولوجية، سياسية، وأخرى دينية، واجتماعية، وذلك لإبراز الصراع الأيديولوجي القائم في المجتمع التونسي واللبناني المتعدد الديانات.

**أ- نسق الحجاب:**

تصوّر الرّوائية من خلال نسق الحجاب رؤية إيديولوجية سياسية ودينية تكشف الصراع القائم بين الشّخصيات اليهودية والمسيحية تجاه الإسلام، وقضية الحجاب على وجه الخصوص في دولتين عربيتين وبالتحديد مدينة جربة بتونس، وقانا جنوب لبنان. غير أنها عمدت إلى التلميح دون التصريح، لتترك للمتلقي والناقد فرص التأويل للوصول إلى ما لم تصرح به في نصها. لذا وجب عليه أن يعيد إنتاج النص الروائي لفهمه. ويرمز الحجاب في الإسلام عموما إلى العرض والشرف والحياء والستر. أما على المستوى الاجتماعي، فهو وسيلة للحفاظ على العلاقات الأسرية والاجتماعية من التفكك والانحلال القيمي، فنسق المرأة في جميع الديانات من أساسيات المجتمع؛ فهي التي تربي وتصنع الأجيال على المبادئ والقيم.

يبدأ الصراع الروائي في مدينة جربة بتونس بعد عدم تقبل شخصية تانيا اليهودية لريما المسلمة بين أفراد عائلتها، واعتبارها عنصرا دخيلا عليهم لاختلاف الدين. وتشتد وتيرة هذا الصراع حين تقدم ريما على ارتداء الحجاب، فحدثت موجة من القلق والغضب لدى تانيا خوفا من إدخال الشكوك العقائدية في نفوس أبنائها، وخوفا من ردود أفعال طائفتها على تبنيها لفتاة مسلمة، وبالتالي فإن الأيديولوجية السياسية والدينية المسكوت عنها داخل النص الروائي يكشفه هذا الصراع القائم بين تانيا وريما.

تمثّل شخصية المرأة اليهودية "تانيا" السلطة السياسية في تونس، والمتجسدة في العلمانية ومحاربة الحجاب والإسلام. كما يمثّل خوف "تانيا" على أبنائها من "ريما" في إدخال الشكوك لعقيدتهم، خوف السلطة السياسية ذات التوجه اليهودي من تأثير الإسلام على الأقلية اليهودية. وما خوفها من كلام أبناء طائفتها إلا دليل على خضوع الأقلية اليهودية في تونس إلى سياسة الأغلبية الصهيونية المتمركزة في فلسطين. كما يعود بنا هذا التشاحن في أحداث الرواية إلى الصراع الذي كان قائما بين النظام الإسلامي والسياسة التغريبية المسيحية التي انتهجا الرئيس التونسي "حبيب بورقيبة" في محاربة الحجاب، وحملاته التضييقية التي قام بها على المحجبات

التونسيات. بدعوى أن الحجاب يقف حجرا أمام تقدم تونس وتطورها، وخلعه يناسب التحرر والحداثة الفكرية والثقافية.

من هنا فإنّ الأيديولوجيا السائدة في الرواية حول نسق الحجاب، بدأت بفكرة العلمنة التي تحاربه وتدعو إلى التحرر منه، بل يرون أنّ المرأة المسلمة المحجبة، هي تفكيك للأسرة ونشر للفتن والتطرف بين شباب المسلمين، ومن ثمّ يحدث الفساد الأخلاقي للمجتمع. وهذا ما تصرح به الرواية من خلال ترك "تانيا" المنزل وإقناع جاكوب بعدم عودتها إلا بإرسال "ريما" إلى مكان آخر رغم علاقة المحبة التي تجمع بينها. وفوق هذا، ف"ريما" هي الأمانة التي تركتها والدتها عند جاكوب. ليلجأ هذا الأخير من أجل استقراره العائلي إلى إرسالها دون شفقة منه إلى جنوب لبنان، أين تلاقي حتفها من طرف قذائف الطيران الإسرائيلي.

من خلال هذا المشهد المؤسف، نلمح التعصب الديني وحب الذات اليهودية. فمهما كانت علاقة الآخر بالأنا اليهودية، فسيقدّم مصالحه على حساب الآخر، وشخصية "جاكوب" تحديدا، تمثل الطبقة التي تنتمي إليها القلة اليهودية داخل المجتمع التونسي، تلك القلة التي هي واجهة سلطوية صنعتها السلطة الإسرائيلية في تأسيس ممارساتها الأيديولوجية والسياسية والاجتماعية والدينية، وذلك من خلال جعلهم خاضعين لأوامرها أو ستتخلى عليهم. وبالتالي كانوا وسيلتها لخدمة مصالحها داخل تونس.

لتنتقلنا الروائية إلى مكان آخر، مكان "قانا" جنوب لبنان؛ حيث تصور لنا النظرة الدونية للآخر اليهودي أو المسيحي عن الإسلام والحجاب، وليست نظرة خاصة بالمسلمين فحسب، بل تشمل حتى أبناء عقيدتهم ممن يعتنقون الإسلام، ثمّ تسقط الروائية هذه النظرة على شخصية "ندى" اليهودية التي نشأت في عائلة تختلط فيها الديانات اليهودية والمسيحية والإسلامية؛ فهي شخصية تؤمن بحرية الفكر والمعتقد. وبعد تعرفها على ريما وأحمد أحد أفراد المقاومة اللبنانية وخطبته لها بعد أن رأى فيها الفطرة الطيبة، وقد يقنعها باعتناق الإسلام من خلال حجة القرآن الكريم المقنعة، وتوضيحه التساؤلات التي لم تجد لها إجابات في دينها المحرف.

فبعد رحلة طويلة من المناقشات والحوارات التي سردتها الروائية بين "ندى" و"أحمد"، وبحثها عن الحقيقة، تعتنق ندى الإسلام، وهذا ما صوّره المشهد الرّوائي: "أشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمدا عبده ورسوله. الآن عرفت الحق وصدقت به. وأنا مدينة لك بكل ذلك. الآن فهمت لماذا طلبت مني أن أقرأ القرآن كل يوم. كنت تعلم أنه السلاح الأقوى في وجه مغرورة مثلي. كنت تعلم أنه لا سبيل إلى بشر أن يقاوم سحر القرآن وتأثيره...كنت تعلم أنني لن أحتاج إلى معلم آخر مع القرآن. كنت تعلم كل ذلك..."[12].

ثمّ تظهر ملامح النظرة الدونية العدائية بعد إشهار "ندى" إسلامها أمام أمها "سونيا"، فتمارس الأخيرة ضدها أنواعا من التضييق والتعذيب النفسي حتى تعدل عن رأيها وترجع إلى دينها، وذلك خوفا من كلام بني طائفتها، خصوصا وأنّ "سونيا" تنتمي إلى "اليهود المتشددين الذين يطالبون بحقهم في القدس، أرض الأنبياء، وبطرد الفلسطنيين منها"[13]. وقد تحولت هذه النظرة الدونية إلى التعصب بعد ارتداء "ندى" الحجاب، تقول الشخصية: "حين خرجت في زيي الجديد، رأيت نظرة غريبة لم أرها في عينيها من قبل. لعلّها اختزال لحقد دفين

على الإسلام وأهله، تحول إلى وحشية في تلك اللحظة، رأيتها تنقض عليا وتنتزع الحجاب بقوة. وألقته على الأرض، انهالت علي ركلا ورفسا!"[14].

ولا تقتصر نظرة الحقد والكراهية تجاه الإسلام والحجاب عن الأنا اليهودية، وإنما تتجاوزها إلى الآخر المسيحي من خلال استغلال ميشال وضع "ندى" في صراعها مع والدتها، وتظهر رؤيته الاستعلائية الماكرة هذه -بالرغم من دراسته للأديان ومعرفته بحقيقة الإسلام- من خلال إعطائه صورة خاطئة عن الأخير، وذلك ظنا منه أن الأمر سيعيد "ندى" لدينها. يقول: "ما الذي وجدته عند المسلمين ولم تجديه عند أهلك اليهود؟ ألا ترين ما هم عليه من التخلف والتأخر عن بقية الأمم؟ لو كانوا على دين حق، لكان الله وفقهم وسخر لهم الإمكانيات المادية. لكن دينهم لم يساعدهم إلا على التقهقر والانغلاق! أنظري إلى الشوارع المتسخة، وإلى الإدارات العامة التي تسودها الفوضى والفساد. انظري إلى الأخلاق والمعاملات في الشوارع، في وسائل النقل، وفي الأماكن العامة... ومع ذلك، فلبنان خير حال من بلدان كثيرة. لماذا برأيك؟ لأن هناك فئة من المسيحيين تمتلك القسم الأكبر من الثروات وتديرها لمصلحة البلاد، لأن السلطة بأيدينا!"[15]. كما صوّر ميشال "الحجاب" بأنّه صورة تمثل الرجعية والتخلف الذي يجعل المرأة لا قيمة لها يقول: "هل بعد كل دراستك وأصلك السامي تريدين أن تصبحي شيئا لا قيمة له، يوضع خلف الأحجبة والأقمشة، يوارى عن العيون ولا يقول رأيه؟ وكيف يقول رأيه وصوته لا يجب أن يسمع... لأنه عورة؟!"[16].

ومن خلال هذه المشاهد السرديه التي تصور لنا نظرة الازدراء والكره التي يحملها الآخر اليهودي والمسيحي اتجاه الإسلام ومبادئه، أرادت الساردة أن تبين أن هذه الكراهية ليست موجهة لفئة معينة، وإنما هي حقد دفين للإسلام في ذاته ومبادئه، لأنه الدين الإلهي الوحيد القادر على كشف كل ما طرأ على الأديان من تحريف وتزييف للحقائق. فما نظرة الاستعلاء للآخر تلك، إلا إحساس منه بالنقص الذي يجده في دينه ليعتدي على دين غيره.

### ب- نسق الحتمية التاريخية (الشتات):

لو تأملنا أحداث ومجريات الرّواية، لوجدناها تقوم على مفارقة دينية استحضرتها الروائية إلى عالمها المتخيل، وهي تتجلى في نسق الشتات والحتمية للمعتقد اليهودي في التوراة لدرايتهم أنّ الله تعالى حكم على اليهود بالشتات في مختلف أنحاء الأرض: أيّ "دون الانتماء إلى وطن يجمعهم ويلم شملهم. ولذلك فإنهم يعتبرون كل محاولة لبناء دولة يهودية قبل عودة المسيح إلى الأرض، خرقا للإرادة الإلهية"[17]. ولعل هذا الاعتقاد الذي يعرفه اليهود هو أداتهم ووسيلتهم لخداع الأمم، فيظهرون بوجه بريء على أنهم مضطهدين ومشتتين في العالم لتتعاطف الشعوب وتتسامح معهم: "استطاع اليهود أن يتغلغلوا في الأمم والشعوب هذا التغلغل الخطير بوسائل المكر والحيلة، وبتسامح الشعوب معهم وتغاضي كثير من الأمم عن جرائمهم، واعتبارهم ضيوفا عندها، أو مواطنين مخلصين للبلد الذي يعيشون على خيراته، مخلصين للأمة التي وفادتهم، أملا بأن يندمجوا مع سكان البلاد الأصليين، وينصهروا بهم، ويتخلصوا من أنانيتهم، وعنجهياتهم الخاصة"[18].

ونستشف هذا الأمر من الرواية، وهي التي تظهر أنّ التعايش بين المسلمين واليهود سطحي ومزيف، فلا يمر مشهد من مشاهد التسامح في الرواية، إلا ويكون خلفه مضمر عن خطر وجود اليهود في الواقع التونسي واللبناني خاصّة والعرب عامة. وهذا ما حمله نسق الشتات التي استغلته شخصية "سونيا" كمبدأ للعنصرية والتعصب الديني. فرغم زاوجها من رجل مسلم ومعارضة أهلها، إلا أنّها كانت تواجه الأمر، رافضة مبدأ الحتمية والقدر الراسخ في معتقدها الديني، ثمّ انتهى هذا الزواج بالطلاق رغم قصة الحب التي جمعتها. ليس لإيمانها بالشتات الذي كتب عليهم، وإنما تعصبا لدينها بعد أن علمت أنّ حضانة ابنتيها ستعهد إلى والدهما، في حين أن ينسب الدين اليهودي حضانة الولد إلى أمه: "استغلت الحتمية التاريخية عند اليهود لصالحها في أحيان كثيرة. حين علمت أن حضانتها وأختها دانا ستعهد إلى والدها لأسباب عنصرية بحتة في نظرها، لم تتردد لحظة واحدة في ركوب الطائرة والتبخر في الهواء، متذرعة بالقدر والشتات. فأمها التي تبدو ضعيفة ورقيقة في مظهرها تغدو طاغية بلا رحمة حين يتعلق الأمر بأطفالها، الهرب يعتبر ضعفا في المطلق، لكن الهرب بأطفالها هو نصر محقق بالنسبة إليها"[19]. فالذي يشير له الملفوظ السردي "نصر"، هو الانتصار لدينها؛ أي نسب ابنتاها إليها ولدينها، ليصبح كل منهما يهوديتين لا علاقة لهما بالإسلام. فأيديولوجيتها الدينية العنصرية هنا، تجاوزت الهرب بهما للبنان إلى تمني نسيانهما أنّ لهما أبا مسلما: "كم أتمنى أن أنسيهما أن لهما أبا مسلما في مكان ما من هذا العالم!"[20] . فمن منطلق المشاهد الروائية، يتضح أنّ الدين اليهودي يتخذ من نسق الشتات أيديولوجيات من الحقد وكره المسلمين، وترسيخ سياسة الاضطهاد والحرب، وانتهاج المصالح الشّخصية والأيديولوجيات السّياسية.

### ج- نسق الوطن والمقاومة:

يحفل النص الرّوائي بالأيديولوجيات السياسية، ومنها ربط الكاتبة نصّ روايتها بفترة الاحتلال الإسرائيلي لجنوب الأراضي اللبنانية منذ مارس 1978، وسرد الأحداث والواقع التاريخية عبر صراع الشخصيات أيديولوجيا بين الوطنية عند الأنا العربي، والتي تتخذ من المقاومة أساسا للاستقلال، وتتجسد في جيش المقاومة اللبناني بقيادة حزب الله بما فيه من الشباب اللبناني المؤمن بالقضية الوطنية، والمصمم على استرجاع حرية الأراضي اللبنانية، وبين الآخر العدو الذي يعتمد أيديولوجيا الاعتداء والتنكيل، وسلب ممتلكات الغير بأبشع الأساليب.

ويتمثل مشهد هذا العداء في الرواية من خلال تصوير بشاعة المجزرة الإسرائيلية التي شهدتها مدينة قانا سنة 1996 باسم "عناقيد الغضب"، وهي العملية العسكرية الإسرائيلية ضد لبنان، والتي كان هدفها ضرب المقاومة اللبنانية والقضاء عليها: "أسلوبها الحرب عن بعد، حملة جوية شاملة وقصف من البر والبحر دون توغل بري. قصفت مدن لبنان وقراه خلالها بما لا يقل عن عشرين ألف قذيفة، وانتهكت سماؤه بأكثر من خمسمائة غارة جوية حصيلتها خمس مجازر، آخرها وأعنفها مجزرة قانا. القوات الإسرائيلية قصفت سيارة إسعاف ومركز وحدة الطوارئ الدولية لتسقط ما يزيد على المائة من نساء وأطفال قانا"[21].

ورغم بشاعة الحادثة في لبنان، إلّا أنّ الصراع الأيديولوجي بين الشخصيات ومواقفها كان متباينا، فهناك من يرى في أيديولوجيته أنّ الاحتلال الإسرائيلي على حقّ مثل "سونيا"، والتي تبرر بشاعة الاحتلال بادعائها أن السياسة الإسرائيلية تقتضي بعض التجاوزات في تحقيق المصالح اليهودية. أما "دانا"، فكانت تسخر من شباب المقاومة: "إنه لشيء عجيب حقا... كل هؤلاء الشباب الذين يتركون عائلاتهم ومستقبلهم وينضمون إلى جيش مبتدئ لا يعترف أحد بمشروعيته، ويضحون بأنفسهم دون نتائج تذكر !!"[22].

فمن خلال شخصية "سونيا" و"دانا"، تظهر صورة التعايش المزيف بين اليهود والمسلمين في الأراضي اللبنانية، كما يظهر مدى تعصب اليهود للوطن. فرغم قبول لبنان عيش اليهود على أرضها، إلا أنهم يساندون الاحتلال، ويعتبرون لبنان وطنهم، وليس من حقّ اللبنانيين مقاومة الاحتلال، ولا الدفاع عن أرضهم. في حين امتعضت"ندى" من الجريمة التي قام به العدوان الإسرائيلي على الأراضي اللبنانية، موقنة أنّ "المقاومة لا تلام على شيء مما تفعله لتحرير الأراضي المغتصبة. وأيقنت أيضا أنها وإن كانت يهودية، فإنها لا تنتمي يوما إلى الفكر، الصهيوني! فاحتلال أرض الغير، وقتل المدنيين العزل، دون شك هو عمل إرهابي"[23]. وقد زاد كره "ندى" للاحتلال بعد أن استشهدت صديقتها "ريما" إثر انفجار قذيفة إسرائيلية بحي شعبي.

وموقف "ندى" هذا، هو من موقف شباب المقاومة اللبنانية التي أفصحت عنه الرواية من خلال بطل المقاومة "أحمد"، والذي أصبحت المقاومة هي "كل ما يشغل تفكيره في تلك الآونة. شهدت حياته تحولا منذ سنتين، بعد مجزرة قانا. أدرك حينها أنه لن يقدر على تحمل يوم إضافي من النوع غير المبرر لعدو لا يعرف للجشع حدودا. تغيرت أولوياته بين يوم وليلة. صار الجهاد المحور الذي تدور في فلكه أفكاره وأفعاله"[24].

كما صورت لنا الروائية بالمقابل، أيديولوجيا حب الوطن والإيمان بالقضية من خلال مسيرة التحرير الشعبية المدعومة من طرف المقاومة اللبنانية المسلحة، والتي انتهت بالنصر- وبعودة المواطنين إلى قراهم وبلداتهم، وذلك بعد سنوات التهجير القسري لعشرات الآلاف من جنوب لبنان، وأيضا انتهت بتحرير الأسرى المحتجزين في معتقل الخيام. فمن خلال فهم القارئ وتأويله لمسار الأحداث، يجد أن هدف الأيديولوجيا الإسرائيلية من ضرب المقاومة اللبنانية كان من أجل الاستيلاء على أراضي الجنوب اللبناني، وجعلها سلاحا أمنيا لحماية الشمال الفلسطيني المحتل من طرفهم. وبالتالي حماية حدود إسرائيل وأمنها الداخلي. والأخطر، فقدان فلسطين دعمها الخارجي من الأنظمة المسلحة المساندة عنها من الخارج.

كما أنّ استحضار الروائية للفضاء المكاني لجنوب لبنان، لم يكن استحضارا اعتباطيا؛ بل نستشفه من المقاطع السردية في الرواية، ومنها: "ولأنني أتمنى أن أموت شهيدة! وهنا في الجنوب، الأعداء قريبون... وكل يوم نسمع عن عمليات المقاومة. وعن الشهداء. أود أن أكون منهم !"[25]. فمن خلال هذه الجملة السردية، تتشكل صورة ذهنية ضمنية لدى القارئ مقابلة للصورة الواقعية، وكأنّ الروائية تقول: هناك في تونس الأعداء بعيدون، وهنا الأعداء قريبون. وهذا التحليل مستمد من أحداث انتقال "ريما" من مدينة جربة جنوب تونس إلى قانا جنوب لبنان، وهذا يثبت أنّ الأيديولوجيا السياسية لليهود في جنوب لبنان، صريحة ومعلنة في قيامها على

الحرب. في حين أن الممارسات الأيديولوجية للأقلية اليهودية في تونس، تتخفى تحت دعاية التعايش والسلام. وهذا حتما يجعل القارئ ينتبه إلى أنّ ما يحصل في جنوب لبنان، قد يحدث في أيّ دولة أخرى تنخدع أنّ التعايش السلمي بينها وبين اليهود كفيل باستقرار البلاد.

**د- نسق الإرهاب والعنف:**

يعدّ الإرهاب من أخطر الممارسات الإجرامية التي تهدّد أمن واستقرار المجتمعات الإنسانية في جميع مجالات الحياة، فهو صورة من صور العنف، هدفه التّرهيب وبثّ الرّعب والفزع في نفوس الشّعوب، وذلك قصد تحقيق مصالح شخصية أو سياسية أو حتى دينية لدى بعض الطوائف. وروايتنا -"في قلبي أنثى عبرية"- تصور هذا النسق؛ حيث استحضرت فيها الرّوائية المشاهد الإرهابية التي وقعت في تونس يوم الحادي عشر أفريل من سنة 2002، وذلك إثر تفجير إرهابي استهدف كنيس الغريبة اليهودي الموجود في جزيرة جربة، والذي راح ضحيته عديد القتلى من الجنسيات المختلفة، لتنسب هذه العملية بعد التّحقيقات إلى الجماعات الإسلامية بتهمة إثارة الفتن والفوضى في ربوع البلاد، وزعزعة التعايش والاستقرار بين اليهود والمسلمين.

كما بيّنت لنا الرّوائية أنّ الإرهاب هو أحد الأيديولوجيات الغربية في تشويه صورة الإسلام أمام الآخر من خلال التصعيد الإعلامي وما ينشره من خطابات العنصرية والكراهية ضدّ المسلمين، وكذلك ربط الإرهاب والعنف بالإسلام، وهذا ما يوضحه المقطع السّردي من الرّواية: "كانت القناة التلفزيونية تنقل صور الفاجعة للمرة الألف. كانت ندى تتابع الأخبار في ألم وحسرة. تمنت أن يكون الانفجار مجرد حادثة. كانت تتخوف من نسب العملية لجماعات إسلامية. فقد كثرت في الفترة الأخيرة الهجمات الإرهابية التي تشوّه صورة الإسلام وتتحدّث باسمه"[26]. فإلصاق وسائل الإعلام صورة سيئة عن الإسلام وجعله مصدر كلّ عدوان أو إرهاب جاءت واضحة في الرواية، ودونما إخفاء في شخصية ما أو ترميز؛ بل بصريح العبارة "تشوّه صورة الإسلام"، وهي تصوير للآخر الغربي المعادي للإسلام ضمن صراع الشرق مع الغرب.

كما جسدت لنا الروائية هذه الرؤية من خلال سؤال باسكال لندى "ما الذي يريده المسلمون منا؟ لماذا يعتدون على مقدسات اليهود هكذا؟"[27]، لتجيبه ندى: "منذ زمن قصير، كنت يهودية مثلكم، وكنت أتساءل إن كان المسلمون يكرهون اليهود..؟ لكنني حينها كنت أجهل كل شيء عن الإسلام، عدا ما تنقله شاشات التلفزة من معلومات مشوهة، هدفها تذكية العداء القائم بين الديانتين. اكتشفت فيما بعد أن الإسلام ليس ممثلا في آراء وتصرفات من يقولون إنهم يتحدثون باسمه، وكثيرا ما تحصل تجاوزات وانتهاكات ليس لها أساس في الإسلام. والأمر ينطبق على هذه الهجمات الإرهابية. هؤلاء الانتحاريون الذين يعتدون على الشّعوب الآمنة ويروعون السياح يجرمهم الإسلام"[28]. ومن هنا تبين الرّوائية مشهد الصراع من خلال التساؤل، وأنّ منظور الآخر المعادي للإسلام ما هو إلا اعتقاد مزيف أنّ الإسلام يهاجمهم.

كما أنّ إساءة الغرب للإسلام تتجاوز تشويهه إلى الافتراء والكذب، وتحريف التاريخ بأنه دين دموي كان ينشر بحدّ السّيف زمن الفتوحات الإسلامية. وقد استفز هذا الأمر الروائية، فظهرت غيرتها الدينية المدافعة

عن الإسلام في شخصية "ندى"، والتي دافعت عنه بطريقة صريحة في الرواية، وجرّدته من تهم العنف والإرهاب، ومن الأفكار التي يروّجها الغرب عنه من خلال استعراضها تاريخ المسيحية مقارنة بتاريخ الإسلام؛ "ففي الحروب الصليبية ضد الإسلام والمسلمين التي استمرت أبيد الملايين، ودمرت القرى والمدن وهدمت المساجد والمعابد، وكانت تبقر بطون الحوامل لإخراج الأجنة، ثم حرقها بعد ذلك في ضوء الشموع والمشاعل"[29]. ومضمون هذا المقطع السردي، أنّ المسيحية هي الدين الملطخ تاريخه بالدماء. في حين، تمنع تعاليم الإسلام في الفتوحات الإسلامية الاعتداء على النساء والأطفال والشيوخ، والاعتداء على المواطنين الآمنين، وتجيز محاربة من يحمل سيفه للاعتداء على الإسلام والمسلمين فقط.

ثمّ تدافع الروائية على لسان شخصية "ندى" عن الإسلام بقوة من خلال إظهار سماحته: "وصوله في زمن قياسي إلى مناطق لم تطأها الجيوش المسلمة؛ بل وصل إليها التجار وتحدثوا عن هذا الدّين الجديد ذي المبادئ والأخلاق الحسنة. كما كان المسلمون يتزوجون من أهل البلاد التي يفتحونها حتى ينشر الإسلام فيها بطريقة اجتماعية حضارية. أما شبه الجزيرة العربية، فلم تتحول إلى أرض مليئة بالقصور والمباني الفارهة! بل ظلت على ما هي عليه حتى اكتشاف الثروات الباطنية فيها- في الوقت الذي تجلب فيه الدول المستعمرة ثروات البلاد المحتلة إلى مراكزها"[30].

من خلال المشاهد السردية عموما، يتضح للقارئ أنّ أهداف الغرب من استغلال حوادث الإرهاب، هي تشويه صورة الإسلام عند الآخر، وهي أيديولوجيا تستهدف المنظومة الإصلاحية التي جاء بها في جميع المجالات، لدرجة أن يقوم الغرب بممارسات إجرامية وينسبها للإسلام، مما ينتج عنه تدخل الدول الغربية في شؤون الدول العربية والإسلامية بدعاية تخليصها من هذا الإرهاب تحت نسق واحد من أيديولوجيا الاحتلال الغربي. وبذلك ترتسم صورة الآخر بأنه إيجابي، وأنّ الذات الإسلامية سلبية وخطر على المجتمعات الإنسانية.

وقد صورت الرّوائية تلك الأيديولوجيا من خلال ممارسات إسرائيل الإجرامية في جنوب لبنان، وهذا في المجزرة الإرهابية التي شهدتها مدينة "قانا" باسم "عناقيد الغضب"، والتي راح ضحيتها مئات النساء والأطفال والمدنيين العزل. وكذلك من خلال ما تقوم به من إسرائيل من تهجير الفلسطينيين واللبنانيين من أراضيهم قصد استغلال ثرواتها. بالإضافة إلى المشاهد التي رصدتها لنا الرواية في المناورات العسكرية التي تقوم بها إسرائيل باستمرار لترويع وإخافة أبناء جنوب لبنان، وأحيانا إطلاق غاراتها الجوية عمدا، ثمّ تظهر في الأخير أنها "قذيفة إسرائيلية سقطت على وجه الخطأ من إحدى الطائرات"[31]. وهذا دليل أنّ القرارات الدولية في محاربة الإرهاب هي قرارات مصلحية عنصرية، تطبق على الدول الإسلامية لا على الدول الاستعمارية اليهودية التي تخدم سياسات الدول العالمية الكبرى.

**الخاتمة:**

في خلاصة هذه الدّراسة، نوجز النتائج الآتية:

- الأيديولوجيا عموما هي الفكر الذي يوجّه حياة الناس في الواقع، السياسية، الاجتماعية، والدينية. لذلك تحضر في الرّواية مستترة خلف الأنساق الثقافية والمعرفية المشكّلة للنص. وقد أكسب هذا الحضور المقنع لها الرّواية مشروعية التعبير عن الصراع الأيديولوجي في فضائها. لذلك ظهرت الأيديولوجيا كنسق ثقافي إبداعي من خلال التمازج بين التمثيل الجمالي والثقافي في إطار مرجعيات الواقع على اختلافه.

- في ظلّ ما تمرّ به الحياة العربية المعاصرة من تحوّلات معقّدة وصراعات فكرية عنيفة، دخلت الأيديولوجيا العربية في أزمة التّشكيك من جانب الهوية، ومن ثمّ تسلّلت عقيدة الانبهار بالآخر وتقليده وإتباعه. لذا نجد في رواية "في قلبي أنثى عبرية" للروائية خولة حمدي محاولة تنويرية للقراء بأنّ يتفطنوا ويتنبهوا إلى الأيديولوجيا السياسية والاجتماعية والدّينية... وغيرها، وكذلك إلى ما تخفي وراءها من عداء الآخر للأنا العربي، مع ضرورة أن يتخذوا مواقف إيجابية كالاعتزاز بهويتهم والتمسك بتعاليم دينهم.

- تعبر الرواية عن الواقع الثقافي من جهة، وتكشف من جهة أخرى الصراع الأيديولوجي القائم بين الآخر اليهودي والأنا العربية الإسلامية في تونس ولبنان، وهذا من خلال جملة من الأنساق أهمها: نسق الحجاب، نسق الحتمية التاريخية، نسق الوطن والمقاومة، نسق العنف والإرهاب.

- تجسدت التمثلات الثقافية للنسق الأيديولوجي في العمل الروائي وفق فضائين متباينين جغرافيا وثقافيا؛ ففي الظاهر يمثل الفضاء التونسي- في الرواية، واقعا للتعايش والحوار بين الأنا والآخر، لكن يكشف الواقع الأيديولوجي المضمر داخل مجتمع النص عكس ذلك، بأنه تعايش مزيف داخل الأيديولوجيا السياسية اليهودية والغربية.

- يلحظ القارئ أنّ روية "في قلبي أنثى عبرية" تستمد قوتها الإبداعية من قوة تأثير الدين على الشخصيات الروائية، ومن قوة شخصية الكاتبة التي بثّت رؤيتها في الواقع السردي خلف شخصياتها المثقفة والإسلامية.

**هوامش:**

[1]- محمد رضا خاكي قراملكي: الإيديولوجيا دراسة في المصطلح والمفهوم وحقول الاستعمال، تعليق: اسعد مندي الكعبي، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، العراق، ط1، 2020، ص9.

[2]- أندريه لالاند: موسوعة لا لاند الفلسفية، تر: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، لبنان، مج1، ص611.

[3]- ينظر: عواد محمود عواد سالم: مقدمة في فلسفة الأيديولوجيا ودعوى تطبيقها على العقائد عرض ونقد، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، دمنهور، ع3، مج5، 2018، ص37.

[4]- محمد عاطف غيث: قاموس علم الاجتماع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1979، ص234.

[5]- أندرو هيود: مدخل إلى الأيديولوجيات السياسية، تر: محمد صفار، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2012، ص18.

[6]- عبد الله العروي: مفهوم الإيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، ط8، 2012، ص11.

[7]- حسيبة ساكر: علاقة الإيديولوجيا بالأدب، مجلة إشكالات، تامنغست، الجزائر مج6، ع3، 2017، ص186.

[8]- عمار بلحسن: ما قبل – بعد الكتابة حول الأيديولوجيا/ الأدب/ الرواية، مجلة الفصول، مصر، ج2، مج 5، ع4، أكتوبر 1985، ص167.

[9]- عبد الإله بلقزيز: المعرفي والأيديولوجي في الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، أكتوبر2010، ص345.

[10]- سليمان بلحسين: من إيديولوجيا الروائي إلى إيديولوجيا النص الروائي، مجلة فصل الخطاب، تيارت، الجزائر، مج4، ع14، جوان2016، ص91.

[11]- حميد لحمداني: النقد الروائي والإيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، ط1، 1990، ص33.

[12]- خولة حمدي: في قلبي أنثى عبرية، دار كيان للنشر والتوزيع، الهرم، 2013، ص225.

[13]- المصدر نفسه، ص42.

[14]- المصدر نفسه، ص237.

[15]- خولة حمدي: في قلبي أنثى عبرية، ص238.

[16]- المصدر نفسه، ص239.

[17]- المصدر نفسه، ص42.

[18]- عبد الرحمن حسن جنكة الميداني: مكايد اليهود عبر التاريخ، دار القلم، دمشق- بيروت، ط2، 1978، ص365.

[19]- خولة حمدي: في قلبي أنثى عبرية، ص32.

[20]- المصدر نفسه، ص59

[21]- خولة حمدي: في قلبي أنثى عبرية، ص21.

[22]- المصدر نفسه، ص20.

[23]- المصدر نفسه، ص21.

[24]- المصدر نفسه، ص48.

[25]- المصدر نفسه، ص145.

[26]- خولة حمدي: في قلبي أنثى عبرية، ص278.

[27]- المصدر نفسه، ص 278.

[28]- المصدر نفسه، ص 278.

[29]- خولة حمدي: في قلبي أنثى عبرية، ص279.

[30]- المصدر نفسه، ص280.

[31]- خولة حمدي: في قلبي أنثى عبرية، ص153.

## قائمة المصادر والمراجع:

### أولا: المصادر

1- خولة حمدي: في قلبي أنثى عبرية، دار كيان للنشر والتوزيع، الهرم، 2013.

**ثانيا: المراجع العربية**

1- حميد لحمداني: النقد الروائي والإيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، ط1، 1990.

2- عبد الإله بلقزيز: المعرفي والأيديولوجي في الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، أكتوبر 2010.

3- عبد الرحمان حسن جنكة الميداني: مكايد اليهود عبر التاريخ، دار القلم، دمشق، بيروت، ط2، 1978.

4- عبد الله عروي: مفهوم الإيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، ط8، 2012.

5- محمد عاطف غيث: قاموس علم الاجتماع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1979.

**ثالثا: المراجع الأجنبية**

1- أندرو هيود: مدخل إلى الإيديولوجيات السياسية، تر: محمد صفار، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2012.

2- أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، تع: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، لبنان، مج1.

3- محمد رضا خاكي قراملكي: الإيديولوجيا دراسة في المصطلح والمفهوم وحقول الاستعمال، تر: اسعد مندي الكعبي، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، العراق، ط1، 2020.

**رابعا: المقالات والدراسات**

1- حسيبة ساكر: علاقة الإيديولوجيا بالأدب، مجلة إشكالات، تامنغست، الجزائر، مج6، ع3، 2017.

2- السعيد عموري: الإيديولوجيا/ الخطاب/ النص- مقاربة مفاهيمية-، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، باتنة، الجزائر، ع29، ديسمبر2013.

3- سليمان بلحسين: من إيديولوجيا الروائي إلى إيديولوجيا النص الروائي، مجلة فصل الخطاب، تيارت، الجزائر، مج4، ع14، جوان2016.

4- عمار بلحسن: ما قبل – بعد الكتابة حول الإيديولوجيا/ الأدب/ الرواية، مجلة فصول، مصر، ج2، مج5،ع4، أكتوبر1985.

5- عواد محمود عواد سالم: مقدمة في فلسفة الإيديولوجيا ودعوى تطبيقها على العقائد عرض ونقد، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، دمنهور، ع3،مج5، 2018.

6- هاني إسماعيل، محمد إسماعيل أبو طيبة: حوارية الخطاب الأيديولوجي في الرواية العربية، رواية السلفي لعمار علي حسن نموذجا، مجلة الموروث، مستغانم، الجزائر، ع5، جوان2017.